﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

بعد أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وأمر الملائكة ان تسجد له وحدث كفر ابليس ومعصيته أراد الله جل جلاله أن يمارس آدم مهمته على الأرض . ولكنه قبل أن يمارس مهمته أدخله الله فى تجربة عملية عن المنهج الذى سيتبعه الانسان فى الأرض ، وعن الغواية التى سيتعرض لها من ابليس . فالله سبحانه وتعالى رحمة منه لم يشأ أن يبدأ آدم مهمته فى الوجود على أساس نظرى ، لأن هناك فرقا بين الكلام النظرى والتجربة .

قد يقال لك شيء وتوافق عليه من الناحية النظرية ولكن عندما يأتى الفعل فانك لا تفعل شيئا . اذن فالفترة التى عاش فيها آدم فى الجنة كانت تطبيقا عمليا لمنهج العبودية ، حتى اذا ما خرج الى مهمته لم يخرج بمبدأ نظرى ، بل خرج بمنهج عملى تعرض فيه لا فعل ولا تفعل . والحلال والحرام ، واغواء الشيطان والمعصية . ثم بعد ذلك يتعلم كيف يتوب ويستغفر ويعود الى الله . وليعرف بنو آدم أن الله لا يغلق بابه فى وجه العاصى ، وانما يفتح له باب التوبة . والله سبحانه وتعالى أسكن آدم الجنة . وبعض الناس يقول : أنها جنة الخلد التى سيدخل فيها المؤمنون فى الآخرة . وبعضهم قال : لولا أن آدم عصى لكنا نعيش فى الجنة . نقول لهم لا . . جنة الآخرة هى للآخرة ولا يعيش فيها انسان فترة من الوقت ثم بعد ذلك يطرد منها بل هى كما أخبرنا الله تعالى جنة الخلد . . كل من دخلها عاش فى نعيم أبدى .

إذن فما هى الجنة التى عاش فيها آدم وحواء ؟ هذه الجنة هى جنة التجربة أو المكان الذى تمت فيه تجربة تطبيق المنهج . ونحن اذا قرأنا القرآن الكريم نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد اطلق لفظ الجنة على جنات الأرض . والجنة تأتى من لفظ

« جن » وهو الستر ، ذلك أن فيها أشجارا كثيفة تستر من يعيش فيها فلا يراه أحد . وفيها ثمرات تعطيه استمرار الحياة فلا يحتاج إلى أن يخرج منها . ونجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾
وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة القلم)

وهذه قصة الأخوة الذين كانوا يملكون جنة من جنان الأرض فمنعوا حق الفقير والمسكين واليتيم ، فذهب الله بثمر الجنة كلها وأحرق أشجارها . وهناك فى سورة الكهف قصة صاحب الجنتين : فى قوله تعالى :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وهى قصة ذلك الرجل الذى أعطاه الله جنتين . . فبدلا من ان يشكر الله تعالى على نعمه . . كفر وأنكر البعث والحساب . وفى سورة سبأ اقرأ قوله تعالى عن أهل سبأ الذين هداهم الله وبين لهم الطريق المستقيم ولكنهم فضلوا الكفر. واقرإ قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ
وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ
وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ
جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة سبأ)

وهكذا نرى أن الحق سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم قد أطلق لفظ الجنة على جنات الدنيا ، ولم يقصره على جنة الآخرة .

إذن فآدم حين قال له الله سبحانه وتعالى :

﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الأعراف)

فهى ليست جنة الخلد وانما هى جنة سيمارس فيها تجربة تطبيق المنهج . ولذلك لا يقال : كيف دخل ابليس الجنة بعد أن عصى وكفر ، لأن هذه ليست جنة الخلد ولابد أن تنتبه الى ذلك جيدا حتى لا يقال ان معصية آدم هى التى أخرجت البشر من الجنة . لأن الله تعالى قبل أن يخلق آدم حدد مهمته فقال :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فآدم مخلوق للخلافة فى الأرض ومن صلح من ذريته يدخل جنة الخلد فى الأخرة ، ومن دخل جنة الخلد عاش فى النعيم خالدا .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « وكلا منها رغدا حيث شئتما » فالله سبحانه وتعالى أمد الجنة التى سكنها آدم وحواء بكل ما يضمن استمرار حياتهما ، تماما كما خلق كل النعم التى تضمن استمرار حياة آدم وذريته فى الأرض قبل أن تبدأ الحياة البشرية على الأرض . فالله سبحانه وتعالى له عطاء ربوبية فهو الذى خلق . وهو الذى أوجد من عدم ، ولذلك فقد ضمن لخلقه ما يعطيهم استمرار الحياة على الأرض من ماء وهواء وطعام ونعم لا تعد ولا تحصى فكأن الله تعالى قد أمد الجنة التى سكن فيها آدم وزوجته بكل عوامل استمرار حياتهما قبل أن يسكناها . كما أمد الأرض بكل وسائل استمرار حياة الانسان قبل أن ينزل آدم اليها . اذن فقوله تعالى : « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة »

هذه فترة التدريب على تطبيق المنهج . والسكن هو المكان الذى يرتاح فيه الانسان ويرجع اليه دائما . فأنت قد تسافر فترات ، وكل الدول التى تمر بها خلال

سفرك لا تعتبر سكنا الى أن تعود الى بيتك ، فهذا هو السكن والرجل يكد ويتعب فى الحياة وأينما ذهب فإنه يعود مرة أخرى الى المكان الذى يسكنه ليستريح فيه

وقوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » هو استكمال للمنهج . فهناك أمر ونهى افعل ولا تفعل : « اسكن أنت وزوجك الجنة » أمر : « وكلا منها رغدا » أمر ، « ولا تقربا هذه الشجرة » نهى وهذا أول منهج يعلم الانسان الطاعة لله سبحانه وتعالى والامتناع عما نهى عنه ، وكل رسائل السماء ومناهج الله فى الأرض أمر ونهى.. إفعل كذا ولا تفعل كذا .

وهكذا فان الحق سبحانه وتعالى ضمن لأدم الحياة ، وليست الحياة فقط ولكن رغدا . أى مباحا وبلا تعب وعن سعة وبدون مشقة.كما أننا نلاحظ هنا أن المباح كثير والممنوع قليل . فكل ما فى الجنة من الطعام والشراب مباح لأدم ، ولا قيد إلا على شىء واحد..شجرة واحدة من بين ألوف الأشجار التى كانت موجودة فى الجنة .. شجرة واحدة فقط هى الممنوعة .

واذا نظرت الى منهج السماء الى الأرض تجد أن الله سبحانه وتعالى قد أباح فيه نعما لا تحصى ولا تعد وقيد فيه أقل القليل . . فالذى نهانا الله عنه بالنسبة لنعم الأرض هو أقل القليل ، كما كان فى جنة آدم شجرة واحدة والمباح بعد ذلك كثير.واذا أخذنا ألفاظ العبارات نجد أن الله سبحانه وتعالى ساعة يقول : « قلنا يا آدم » أتى بضمير (نا) ضمير الجمع ، لأن الله واحد أحد ، ولكنهم يسمونها : نون الكبرياء ونون العظمة .

اذن فكل حدث يأتى فيه الحق تبارك وتعالى بنون الكبرياء ونون التعظيم . لأن كل فعل من الأفعال يحتاج الى صفات متعددة حتى يتم. فأنت اذا أردت أن تفعل شيئا فانه يقتضى منك قوة ويقتضى منك علما ويقتضى منك قدرة ويقتضى منك حكمة . . إذن فهناك صفات كثيرة موجودة يقتضيها الفعل .

ولكن حين يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن شهادة التوحيد يقول « إننى أنا الله » ولا يقول : إنما نحن الله . . لأنه جل جلاله . يريد توحيدا . ففى موقع التوحيد

يأتى بضمير الافراد واحد أحد .. أما فى صدر الاحداث . فيأتى بضمير الكبرياء والعظمة . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وعندما اراد الحق تبارك وتعالى أن يمتدح ابراهيم قال : « ان ابراهيم كان أمّة » ما معنى أمّة ؟ أى جامعا لصفات الخير التى لا تجتمع فى فرد ولكنها تجتمع فى أمة . فالأمة تجتمع فيها صفات الخير .. هذا متميز بالصدق ، وذلك بالشجاعة . وهذا بالحلم . فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول ان ابراهيم كان أمة أى أنه كان جامعا لصفات الخير .

وفى قوله « قلنا يا آدم » آدم اسم علم على المسمى الذى هو أول خلق الله من البشر « واسكن » تحتاج الى عنصرين : الهدوء والاطمئنان .. هذا هو معنى اسكن . توفير الهدوء والاطمئنان ، ومنه أخذ اسم السكن . وكلمة المسكن وأطلق على الزوجة .. واذا فقد المكان الذى تسكن فيه عنصرا من هذين العنصرين وهما الهدوء والطمأنينة لا يقال عليه مسكن . والزوجة سميت سكنا كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

(من الآية ٢١ سورة الروم)

لأن الهدوء والرحمة والبركة تتوافر فى الزوجة الصالحة . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة التوبة)

أى راحة واطمئنانا ورحمة . فالانسان يريد فى بيته أن تكون الحياة فيه مريحة له من عناء العمل وصخب الحياة . ويقول الحق سبحانه وتعالى : « اسكن انت وزوجك » وكان من الممكن أن يقول اسكن وزوجك لأن الفاعل فى فعل الامر دائما مستتر . ولكنه سبحانه قال : اسكن انت وزوجك . . واياك أن تظن أن أنت هو فاعل الفعل اسكن . ولكنه ضمير جاء ليفصل بين اسكن وبين زوجك حتى لا يعطف الاسم على الفعل .

أننا لابد أن نلاحظ أن كلمة زوج تطلق على الفرد ومعه مثله . ولذلك لم يأت بتاء التأنيث . . اسكن أنت وزوجتك . لأن الأمر التكليفى من الله . سواء فيه الذكر والانثى . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة غافر)

إذن فهما متساويان فى هذه الناحية . هذه الجنة ماذا وفر الله سبحانه وتعالى لآدم وزوجه فيها ؟ اقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾

(سورة طه)

هذه عناصر الحياة التى وفرها الله لآدم وزوجه فى جنة التجربة الايمانية العملية على التكليف . وهكذا نرى من الأوصاف التى أعطاها الله سبحانه وتعالى لنا لهذه الجنة أنها ليست جنة الآخرة . لأنه أولا فيها تكليف . فى قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » وجنة الآخرة لا تكليف فيها ، والحق تبارك وتعالى أباح لآدم وحواء أن يأكلا كما يشاءان من الجنة . والجنة فيها أصناف كثيرة متعددة . ولذلك قال : « حيث شئتما »

وأنت لا تستطيع أن تقدم لانسان صنفا أو صنفين وتقول له كل ما شئت . لأنه لا يوجد أمامه الا مجال ضيق للاختيار ، كما أن قلة عدد الأصناف تجعل النفس تمل . ولذلك لابد أن يكون هناك أصناف متعددة وكثيرة .

ثم جاء النهى . فى قوله تعالى : « ولا تقربا هذه الشجرة » أى لا تقتربا من مكانها . ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى ولا تأكلا من هذه الشجرة ؟ . لأن الله جل جلاله رحمة بآدم وزوجه كان لا يريدهما أن يقعا فى غواية المعصية . فلو أنه قال : ولا تأكلا من هذه الشجرة لكان مباحا لهما أن يقتربا منها فتجذبهما بجمال منظرها ويقتربا من ثمارها فتفتنهما برائحتها العذبة ولونها الجذاب . حينئذ يحدث الاغواء . وتمتد أيديهما تحت هذا الاغراء الى الشجرة ليأكلا منها .

ولكن الله تعالى يعلم أن النفس البشرية اذا حرم عليها شيء ولم تحم حوله كان ذلك أدعى ألا تفعله . فالله تعالى حين حرم الخمر لم يقل حرمت عليكم الخمر والا كنا جلسنا فى مجالس الخمر ومع الذين يشربونها . أو نتاجر فيها وهذا كله اغراء بشرب الخمر . . ولكنه قال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

هذا النص الكريم قد جعلنا نبتعد عن الاماكن التى فيها الخمور . فلا نجلس مع من يشربونها ، ولا نتاجر فيها حتى لا نقع فى المعصية . فاذا رأيت مكانا فيه خمر فابتعد عنه فى الحال . حتى لا يغريك منظر الخمر وشاربها بأن تفعل مثله . والحق جل جلاله يقول فى المحرمات : « لا تقربوا » واجتنبوا . . أى لا تحوموا حولها . لأنها اذا كانت غائبة عنك فلا تخطر على بالك فلا تقع فيها . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(إنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ والْحَرَامَ بَيِّنٌ وبينهما أمور مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهاتِ وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه .ألا وإن لكل مَلِكٍ حِمى حمى الله محارمه) (١)

---

(١) (رواه البخارى ومسلم عن النعمان بن بشير) .

ولقد كان بعض الناس يقبلون على شرب الخمر ويقولون انه لم يرد فيها تحريم صريح .. فلم تأت مسبوقة بكلمة حرمت . . نقول ان كلمة اجتنبوا . أشد من التحريم . فقوله تعالى : « اجتنبوا الرجس من الأوثان » معناه ألا تنظر حتى الى الصنم . واجتناب الخمر ألا تقع عينك عليها . .

وقد اختلف الناس فى نوع هذه الشجرة . وهل هى شجرة تفاح أو تين أو عنب أو غير ذلك . ونحن نقول : ليس هذا هو المقصود . ولكن المقصود هو التحريم . لأن منهج الله سبحانه وتعالى يحلل أشياء . ويحرم أشياء .

وقوله تعالى : « فتكونا من الظالمين » الظلم هو الجور والتعدى على حقوق الغير . والظالم هو من أخذ فوق ما يستحقه بغير حق . والظلم يقتضى ظالما ومظلوما . وموضوعا للظلم . فكل حق ـ سواء كان ماديا أو معنويا ـ يعتدى عليه انسان بدون حق فقد حمل ظلما . حتى الانسان انه أحيانا يظلم نفسه . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة آل عمران)

كيف يظلم الانسان نفسه ؟ قد يظلم الانسان غيره . ولكنه لا يظلم نفسه أبدا لانه يريد أن يعطيها كل ما تشتهيه . وهذا هو عين الظلم للنفس . لانه أعطاها شهوة عاجلة فى الدنيا . ربما استمرت ساعات . وحرمها من نعيم أبدى فى الآخرة . فكأنه ظلمها بأن أعطاها عذابا أليما فى الآخرة مقابل متعة زائلة لا تدوم . . وهناك من يبيع دينه بدنياه . ولكن أظلم الناس لنفسه من يبيع دينه . بدنيا غيره . يشهد زورا . ليرضى رئيسا . أو يتقرب لمسئول . أو يرتكب جريمة . . اذن قوله تعالى : « فتكونا من الظالمين » أى من الذين ظلموا أنفسهم بمعصية الله .

